

## سُورَةُ الرَّعْدِ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه ونجومه وبروجه ، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد ، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات؟ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لاشك عنده في الله ، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠١] . فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه . وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِزْقَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد : ١٢-٤] . وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية : ٣-٦] . وقال تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ إلى قوله : ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان : ١٠-١١]

(٢) قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٤] ثم إنه سبحانه يصرف ما

أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه إلى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلى طبيعة أخرى. وهذا كما خلق كل دابة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها، وأمشى بعضاً عن بطنه وبعضاً على رجلين وبعضاً على أربع، حكمة بالغة وقدرة باهرة. وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده ويظهر ملكه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) الثالث والعشرون إن هذه الجسادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثر الأمم في وصفه وتجربته على مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علماً بجميع ما أودع واحداً من ذلك النوع من الحكم والمصالح، هذا إلى ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيتته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته، فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصور الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات، ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضاً، ولا هو مقتض له. فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختياراً ومشيتة، فتنوع مخلوقاته وحدوثها شيئاً بعد شيء من أظهر الدلالات. وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا

به الأرض بعد موتها وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

**وقوله:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْثَبُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

<sup>(١)</sup> ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة. فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها. وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت. وهذه تربة، وتلاصقها رمال. وهذه صلبة، ويلاصقها ويلبها رخوة. وهذه سوداء، ويلبها أرض بيضاء. وهذه حصى كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر. وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره. وهذه سبخة مالحة. وهذه بضدها. وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم. وهذه مسخزة بالجبال. وهذه لا تصلح إلا على المطر وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

**فلو** سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزائها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسبها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجها منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهداها وذللها، وطحها، ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن

تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبداع المخلوقات، وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وأنشأ منها أولياءه، وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك. ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة - كما نشاهده في الصيف - فاحترقت أبدان الحيوان والنبات. وبالجملية فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الجبل، فإذا كان وقت الولادة منحضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

**فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانته السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلق عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة. وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه. ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلاف مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية. وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.**

**فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور. فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها. وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا**

يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغنى عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غنى عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيّب داعي مشيئته، وتلبّي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبه، وتحذّرهم من بأسه ونقمته، وتحثّهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

**فانظر** إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحرّكت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة مساوية، وحصل بها النباتات. ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج. وحرارة الصيف للإنضاج. هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللحاق واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع. كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]. وفي الآية قولان:

**أحدهما:** إن تعجب من قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خلّقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً.

**والثاني:** إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث، وقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

**وعلى التقديرين:** فإنكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

(١) **التعجب** كما يدل على محبة الله للفعل نحو: «عجب ربك من شاب ليست له صبوة». «ويعجب ربك من رجل ثار من فراشه ووطائه إلى الصلاة». ونحو ذلك فقد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبَ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿بَلْ عَجَبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧]. وقد يدل على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله نحو: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦].

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفظام ثلاثون شهراً، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿حولين كاملين﴾، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضى الله عنهم.

**فذكر البيهقي وغيره عن حرب بن أبي الأسود الرملي:** أن عمر أتى بامرأة قد ولدت لسته أشهر، فهمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فقال ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه فسأله؟ فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. فسته أشهر حملة وحولين تمام الرضاعة لا حدَّ عليها فخلى عنها.

**وفي موطأ مالك؛** أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتى بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم. فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت.

**وذكر داود بن أبي هند:** عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهراً، كما قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ انتهى كلامه.

**وقال تعالى:** ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨]. قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصاناً من الولد. وما تزداد، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها، وقال أيضاً الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

**وقال الحسن:** ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزداد: المرأة تلد لعشرة أشهر، وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل، فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً. فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

**وقال قتادة:** الغيض: السقط، وما تزداد، فوق التسعة أشهر، وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل، تغيض وتزداد فعلاً متعديان مفعولهما محذوف وهو عائد على ما الموصولة. والغيض: النقصان. ومنه وغيض الماء، وضده: الزيادة.

**والتحقيق في معنى الآية** أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه، عليه السلام: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله:

١ - لا يعلم متى يجيء الساعة إلا الله. ٢ - ولا يعلم ما في غد إلا الله.

٣ - ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله. ٤ - ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله.

٥ - ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله».

**فهو** سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم ، وعلم وقت إقامته فيه وما يزيد من بدنه وما ينقص ، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه ، والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان ا. هـ. (١)

(١) **(قاعدة):** الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

**أحدها:** علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنيا والرذائل ، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره . وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب .

**السبب الثاني:** الحياء من الله سبحانه ، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه ، وأنه بمراى منه ومسمع - وكان حيّاً - استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه .

**السبب الثالث:** مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك ، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد . **فما** أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب ، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها ، وإن أصر لم ترجع إليه ، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] . وأعظم النعم الإيثار ، وذنوب الزنى والسرقة وشرب الخمر وانتهاج النهبة يزيلها ويسلبها . وقال بعض السلف : أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة . وقال آخر : أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن . وفي مثل هذا قيل :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
وبالجملّة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب ، عياداً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته .

(٢) ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] .

**يعقب** بعضهم بعضاً ، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يشبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون : إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه .

(١) سيأتي في سورة الأحقاف زيادة بحث حول هذا إن شاء الله (ج) .

(٢) ٣٠ ١٢٩ الجواب الكافي .

(٢) ٢٧٠ طريق اللهجرين .



<sup>(١)</sup> **ومن** عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نعمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغْفِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

### فصل<sup>(٢)</sup>

**ومن** عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل وتمنع الواصل. فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة، سبباً يجلبه وآفة تبطله. فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفات المانعة منها معصيته. فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها. ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسامعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه وواصل إلى الخلق لا إليه، فأبي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

<sup>(٣)</sup> **والمقصود** أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهي بمنزلة طعام لذيق شهوي لكنه مسموم، إذا تناوله الأكل لذ لأكله وطاب له مساغه وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب

(١) ٩٧ الجواب الكافي.

(٢) ١٤٣ الجواب الكافي.

(٣) ٢٠٥ بدائع ج ٢.

ولابد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده . وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] .

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم؛ وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس . ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له . والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولا بد . وأما كون مسبباتها شروراً فلا أنها آلام نفسية وبدنية فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات . ولو تفتن العاقل اللبيب لهذا حق التفتن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] . ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] .

وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق . ومرادهم : هذا المعنى .

فقال علي رضي الله عنه : دعوة الحق : التوحيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الدعاء بالإخلاص . والدعاء الخالص لا

يكون إلا لله . ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

(١) قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦] . فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق ، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق ، وعلى أنه واحد بأنه قهار . والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشركة تنافي تمام القهر .

(٢) وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْمُثَلِينَ الْمَائِيَّ وَالنَّارِيَّ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ ، وَلَكِنْ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] . شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يَسَعُ علماً عظيماً كوادٍ كبير يَسَعُ ماءً كثيراً ، وقلبٌ صغير إنما يَسَعُ بحسبه كالوادي الصغير ، فسالت أودية بقدرها ، واحتملت قلوبٌ من الهدى والعلم بقدرها ؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرضَ ومَرَّ عليها احتمل غُثَاءً وَزَبَدًا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات لِيَقْلَعَهَا ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربُه ، وهي من تمام نفع الدواء ، فإنه أثارها ليذهب بها ، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها ؛ وهكذا يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، ثم ذكر المثل الناري فقال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ﴾ وهو الحَبْثُ الذي يخرج عند سَبْكِ الذهب وَالْفِضَّةِ وَالنَّحَاسِ والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمي ويطرح ويذهب جُفَاءً ؛ فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلبُ المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغُثَاءَ والحَبْثَ ، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم ،

كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره؛ ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، والله الموفق.

<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧].

شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً. فقال: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء.

وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطففت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون. ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر. فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقية النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده.

**وضرب** سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فأيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمتها كما تحرق النار ما يلقي فيها،

وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

(١) **فَضْرِبُ** لوحية المثل بالماء لما يحصل به من الحياة ، وبالنار لما يجعل بها من الإضاءة والإشراق ، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً ، ووادٍ صغير يسع ماءً قليلاً . كذلك القلوب مُشَبَّهَةٌ بالأودية ، فقلب كبير يسع علماً كثيراً وقلب صغير إنما يسع بقدره . وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات ، بسبب مخالطة الوحي لها ، وإمازته لما فيها من ذلك ، بما يحتمله السيل من الزبد . وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها ، بذهاب ذلك الزبد ، وإلقاء الوادي له ، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع . وكذلك في المثل الذي بعده : يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر ، ويستقر صفوه .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال في سورة البقرة : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فهذا المثل الناري . ثم قال : ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة : ١٩] فهذا المثل المائي .

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمنناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره (٢) .

**والمقصود :** أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين . قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُذَكِّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس : ٦٩] ، [٧٠] . فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب ، كما قال في موضع آخر : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ .

(٣) **الوجه الثاني عشر :** أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين

(١) ٢٢ إغائة جـ ١ .

(٢) ٤٩ مفتاح جـ ١ .

لا يبصرون فقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. فهاثم إلا عالم أو أعمى. وقد وصف أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

<sup>(١)</sup> قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قسم الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق. والثاني: العمي فدل على أنه لا واسطة بينهما.

<sup>(٢)</sup> الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.

وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في (فتوح الغيب):

«لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهى يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب: فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم

شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان

محبوباً له فالمطلوب فعله أما واجباً وأما استحباباً، ولا يتم ذلك إلا بالصبر. وإن

كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة، وذلك أيضاً موقوف على

الصبر. فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على

العبد من المصائب التي لا صنع له فيها. ففرضه الصبر عليها. وفي وجوب الرضا

بها قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد: أحدهما أنه مستحب. فرجع الدين

كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحذور، والصبر على المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفاً، ولا

تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف. فقيام عبودية الأمر والنهي

والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها .  
**فالصبر** متعلق بالمأمور والمحذور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائماً يحوم على هذه الأصول الثلاثة، كقوله : يا بني افعل المأمور واجتنب المحذور واصبر على المقدور . وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله : ﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : ١٧] . فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي . وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢-١٩] .  
**فجمع** لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف ؛ فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه وبينهم وبين خلقه . ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه ، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام : بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها . فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد . وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل .

**وأمر** أن يوصل ما بيننا وبين رسوله : بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء والرضا لحكمه والتسليم له وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله .

**وأمر** أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين : بالبر والصلة ، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل . وأمر أن نصل ما بيننا وبين

الزوجات : بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهم بالمعروف .

**وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء :** بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم .

**وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد :** بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا .

**وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر .**

**وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس :** بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا .

**وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتين بأن نكرمهم ونستحي منهم** كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يحله ويكرمه . فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل . ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة ، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب . ولا يمكن أحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل .

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** ﴾ [الرعد : ٢٢] . فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال : ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ** ﴾ . وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ **وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإِنفاق عليهم سرّاً وعلانية ؛ فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإِنفاق عليهم . ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا : أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرءون بالحسنة السيئة فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال : ﴿ **وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** ﴾ . وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » والتحقيق أن الآية تعم النوعين . والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات



الإسلام والإيمان كلها واشتملت على فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة: فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحذور.

<sup>(١)</sup> ويذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها؛ كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله؛ كتب الله له ستائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده؛ كتب الله له تسعمائة درجة». وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ثم قال: «صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهو عنه». وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به والله أعلم.

<sup>(٢)</sup> وروى شعبه بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم: حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامر العقيلي، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،: «عرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فخور».

وروى الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه واللفظ له من حديث

أبي عشانة المعافري أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون أول من يدخل الجنة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطيع لها قضاء فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

<sup>(١)</sup> ومن شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسماؤه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر - التي فطر عليها الحيوان - الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال والأنثان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبه. وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه. ولوبقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضرورياً ويقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرت حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية: من الفرح، والألم، والحب، والخوف - أنه من عند الله. تكلم به حقاً. ويبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد في القلب من أعظم

الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يَرْتَدُّ أحد منهم سخطه لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيَّان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد».

**وقد** أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤]. وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦]. وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]

**وقوله** ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلْ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]. يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذي يهدي ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بكتابه وكلامه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه؛ من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة؛ أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

**ومتى** انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. فكل ما تراه في الوجود - من شر وألم وعقوبة وجذب، ونقص في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

## (١) وأما المسألة الحادية والعشرون وهي:

### هل النفس واحدة أم ثلاث؟

**فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس:** نفس مطمئنة ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]. وبقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢٠١]. وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم

**فتسمى مطمئنة** باعتبار طمأنيتها إلى ربها: بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

**فالطمأنينة إلى الله** سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعها عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

**قضى الله سبحانه** وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه آتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزاله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه

أغراضاً لسهام البلاء؛ ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود ومنوع. وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة؛ أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانسراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب؛ حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً، فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

**فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به** عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقاً باليوم الآخر كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم،: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «عبد نور الله قلبه».

### فصل

**والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها**

وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجهه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

**وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً؛** فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليداً فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره؛ بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوسوس التي لأن يخرمن السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم، «صريح الإيمان». وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما، فالتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب؛ ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته.

فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو انصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في

غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يوارىها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

### فصل

**وها هنا سر لطيف** يجب التنبيه عليه والتنبه له ، والتوفيق له بيد من أزمه التوفيق بيده ، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالإبصار ، وكمال الأذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك . وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً من العين التي فقدت النور الباصر ، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال ؛ إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك .

**قال ابن عباس رضي الله عنهما :** المطمئنة : المصدقة . وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله . وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها ، وروى منصور عنه قال : النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت <sup>(١)</sup> جاشاً لأمره وطاعته ، وقال ابن أبي نجيج عنه : النفس المطمئنة المخبئة إلى الله . وقال أيضاً : هي التي أيقنت بلقاء الله . فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل .

(١) هكذا ولعله : سكنت أو بردت .

## فصل

**فإذا** اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل فقد باشرت روح الطمأنينة. وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعادته بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه.

<sup>(١)</sup> **وقال تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة؛ دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبه له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له؛ على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

**والفرق** بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحسوب بعد حصوله والاستبشار

يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧].

**والفرح** صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها،

كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقد هـا، واليأس من حصولها.

**والمقصود** أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح

والسرور نعيمه. والهـم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانسراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فرح راضٍ. وليس كل راضٍ فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم.

<sup>(٢)</sup> **والفرق** بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته

ومحبته وكلامه من القلب قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦] فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله



أحق بالفرح به . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨] . قال أبوسعيد الخدري : فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله .

وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته : الإسلام الذي هداكم إليه : والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجهور المفسرين : فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن ، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا ، فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له . فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه ، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه . فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه ؛ أفضل ما يعطاه بل هو أجل عطاياه . والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا ، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها ، فهذا شأن فرح القلب .

وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه وبه وكلما تمكن في ذلك قوى فرحه وابتهاجه .

وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن ، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة ، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة ، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، مثلاً ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه ، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدوها في أرض دوية مهلكة ، فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيش

منها فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته.

**فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما أثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمان ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب فالحكم لله العلي الكبير.**

**وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقتها الدنيا إلى الله** إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلاقائه وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضياً عنك: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

**فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح! منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه. ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشجيع مقربيهما لها إلى السماء الثانية ففتح ويصلى عليها أهلها ويشيعها مقربوها، هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله؛ فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله؛ فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه وبياض وجهه وإعطائه النور التام، والناس في الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهاه إلى باب الجنة، وقد أزلفت له في الموقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدمه على منازل وقصوره وأزواجه وسراريه.**

**وبعد** ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرتهم لهم.

<sup>(١)</sup> استدل على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى عز وجل اختار النكاح لأنبيائه ورسله فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

**وقال** في حق آدم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهَا رَوْحَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ واقتطع من زمن كليمة عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات. واختار لنبيه محمد، ﷺ، أفضل الأشياء فلم يحب له ترك النكاح بل زوجه بتسع فما فوقهن. ولا هدي فوق هديه. ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي، ﷺ، يوم المباشرة بأمته.

**ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.**  
**ولو لم يكن فيه إلا أنه يخرج من صلبه من يشهد الله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.**  
**ولو لم يكن فيه إلا غض بصره وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.**  
**ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به ويثيبه على قضاء وطره ووطرها فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.**

**ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.**

**ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.**  
**ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.**  
**ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه. فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له، فإن المهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.**

**ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له ستراً من النار.**

**ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة .**  
**ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له فإن في الحديث المرفوع : « ثلاثة**  
**حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والمجاهد .**  
**(١) فصل ومن هذا قوله تعالى : ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى**  
**بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد : ٤٣] فاستشهد على رسالته**  
**بشهادة الله له . ولا بد أن تعلم هذه الشهادة . وتقوم بها الحجة على المكذبين له ،**  
**وكذلك قوله : ﴿قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلْ : الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام :**  
**١٩] . وكذلك قوله : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ**  
**وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء : ١٦٦] . وكذلك قوله : ﴿يَس . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ**  
**الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس : ١-٣] وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون : ١] . وقوله :**  
**﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح : ٢٩] . فهذا كله شهادة منه لرسوله . قد أظهرها وبينها .**  
**وبين صحتها غاية البيان . بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته . وأقام الحجة**  
**عليهم . فكونه سبحانه شاهداً لرسوله : معلوم بسائر أنواع الأدلة : عقليها ونقليها**  
**وفطريها وضروريها ونظريها .**

**ومن نظر في ذلك وتأمله ؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق**  
**الشهادة . وأعد لها وأظهرها . وصدقه بسائر أنواع التصديق : بقوله الذي أقام**  
**البراهين على صدقه فيه ، وبفعله وإقراره ، وبما فطر عليه عبادته : من الإقرار**  
**بكمالها ، وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به . وفي كل وقت يحدث من الآيات**  
**الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة ، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما**  
**وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد . ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما**  
**توعدهم به : من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة ، الدالة على تحقيق العقوبات**  
**المؤجلة ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى**  
**بالله شهيداً﴾ [الفتح : ٢٨] . فيظهره ظهورين : ظهوراً بالحجة ، والبيان ، والدلالة .**  
**وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة ، والتأييد . حتى يظهره على مخالفه . ويكون منصوراً .**  
**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين**